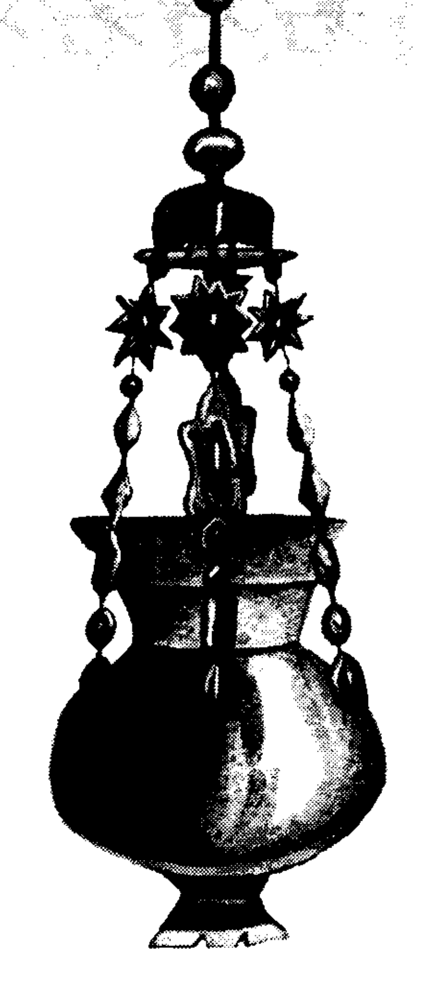
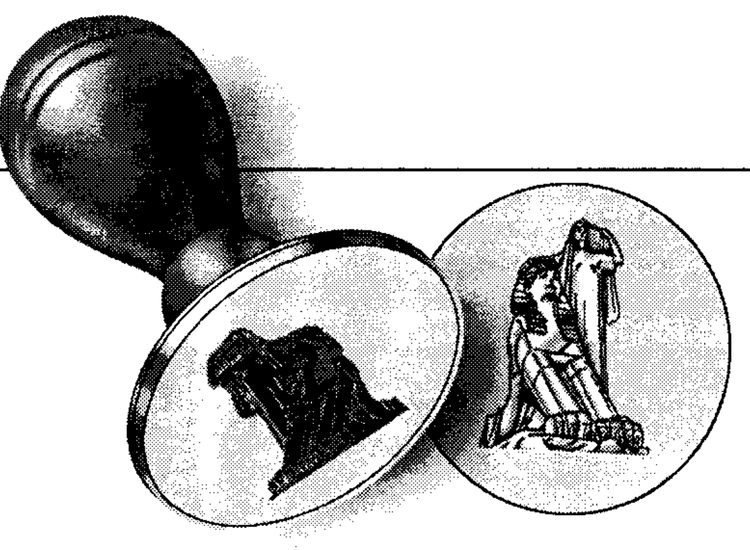
في التنوير الإسلامي ٤٨



نظرات حضارية
في القصص القرآني

تأليف
د. سيد دسوقي حسن





اسم الكتاب	نظرات حضارية فى القصص القرآنى
اسم المؤلف	د. سيد دسوقى حسن
اشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	مايو ٢٠٠٠
رقم الإيداع	٧٧٠٩ / ٢٠٠٠ م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1210 - 8
الناشر	دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

مقدمـــة

كنت أقضى دائماً شطراً من رمضان ومن إجازة الصيف عاكفاً على القـرآن الكريم أتدبر آياته وأتأمل فى آفـاقـه . . وفى كل مـرة كنت أخـرج من رحلتى مـعـه بصيـد حـضـارى ثمين . . ولكنى أحاطت بى واجبات أخرى فى الصـيف ورمضان الماضيين حالت بينى وبين هذه المتعة الكونية التى لاتدانيها متع الدنيا جميعاً . . ولم تكن هذه الواجبات أمور يقوم عليـها غيـرى فأتركـها لهم وإنما كـانت فرصة حين يتعلق بالإحتشاد بمجموعة من شباب العلماء فى مجالات هندسـة الطيـران والفضـاء ، شعـرت أننى سيـدركنى الإثم إن لم أسارع بهذا الإحتشاد العلمى فى سبيل الله والوطن .

وهذه المجموعة من التأملات كنت قد كتبتـها قبل صيف ٩٨ ونشرت فى أكثر من جريدة فى مصر والخارج ، بإذن منى وبغير إذن ولا تثريب على الناشرين .

ولعل القارىء يعيد قراءة مقدمتنا للمجموعة الأولى (عدد ١١ من سلسلة- فى التنوير الإسلامى : تأملات فى التفسير الحضارى للقران الكريم) .

وإجابة السؤال الذى طرحناه : ما الذى نعنيه بالتفسير الحضارى للقران الكريم؟ حيث قلت : نعنى بالتفسير الحضارى هذا التفسير

الذى يبحث عن الميزان القيمى فى القرآن الكريم . . هذا الميزان الذى نجده منثوراً فى آياته ظاهراً فى بعض الأحيان ومكنوناً كالدرة المكنونة فى تلافيف قصة قرآنية ، أو فى إشارات مثَل قرآنى فى أحيان أخرى .

تقرأ لمفسر فى القرن الرابع الهجرى تفسيره لسورة الفلق ، فيحدثك عن السواحر اللواتى يعقدن عقد الخيط وينفثن فيها ، وذلك بالقطع كان سائداً فى الحياة الجاهلية العربية ، ولكنك اليوم فى القرن العشرين ، تقرأ مقاطع السورة مقطعاً مقطعاً فيهيىء إليك أنك تملك ناصية علوم النفس جميعا .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)** ﴾ [**الفلق** : ١ - ٥]

فبعد أن تستعيذ برب الفلق . . وما أجمل فلق الصبح بعد ظلام الليل .

وكل إنسان يأمل فى فلق ، وكل شعب يأمل فى فلق ، ففلق الإصباح حيث الرؤية الواضحة المستنيرة . . سوف يعين الفرد والجماعة أن تتجنب شرور المخلوقات وتستعين بخيرها . . هذا الفلق هو النور الذى يملأ الصدور بالإيمان والعقول بالعلوم . . هذا الفلق هو الذى ينير الأبصار والبصائر . . فإذا أنت مع المخلوقات فى تناغم جميل ، وتكون كداود عليه السلام ، تؤوب معك الجبال والطير . . وتتعاون معك المخلوقات . . إنسها وجنها وطيرها وجمادها وأحياؤها .

وأنت تفعل ذلك بكشاف الفلق . . العقل العالم والبصيرة المؤمنة .

فإذا مَنَّ الله عليك بالنور والضياء فى حياة طيبة فأنت تستعيذ بالله من شر الظلمات التى ستدخل عليك كما يدخل الليل فى النهار رويداً رويداً ﴿ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ، ولذلك لابد أن تنتبه وتصطنع من أدوات القياس ما يحذرك من قدوم الظلمات التى سوف تحيط بك فى صمت وتزداد شدتها فى هدوء ، ثم يحذرك من شر هذه الأجهزة الرهيبة . . أجهزة المافيا الشيطانية التى تتعرف على عقد الناس النفسية والاجتماعية ﴿ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ، وليس هناك فرد بغير عقد ، ولا مجتمع من غير عقد ، فتبدأ هذه الأجهزة فى نفث سمومها عن طريق هذه العقد لتدفع الأفراد والمجتمعات إلى وجهة تريدها وشر ترسمه لهم ، ثم يحذركم من شر هؤلاء الذين يتمنون زوال النعمة عنكم حتى تنتبهوا وتدرسوا وتتعرفوا عليهم ﴿ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ، فالحذر واجب ، ولكننا نحذر ما استطعنا بالجهاد الدائم ، وفى كل الأحوال نستعيذ بالله فهو وحده الذى سيمنحنا الأمان النفسى والإجتماعى وسيحمينا من شرور خلقه .

هذا إبحار على شاطىء سورة الفلق يعبر عن توجهنا التفسيرى فى اكتشاف الموازين القيمية متدثرة فى كلمات الكتاب في إعجاز ربانى مبين .

انظر إلى هذه الآيات من سورة الروم :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة الروم ١ - ٥]

والمفسرون يقولون كلاماً جميلاً يتعلق بحزن المسلمين على هزيمة الروم وهم أهل كتاب وانتصار الفرس الوثنيين كأهل مكة فى معركة كانت بين الفرس والروم قبل الهجرة بقليل .

ولكننى أرى آفاقا أخرى لهذه الآية العظيمة أشعر بها هذه الأيام بعد أن أنفردت قوة باغية بالعالم وبعد أن اندحرت قوة أخرى كانت توازنها لتخفف من حدة البغى والتسلط على المستضعفين ، فعندما غُلبت الروم أصبحت كفة الميزان راجحة لصالح الفرس ، والخشية الحضارية هى أن تصبح هذه الكفة راجحة لفترة طويلة ، فتستبد هذه القوة الغاشمة بالمستضعفين ، فيأتى القرآن ليبشر أن الأمر لايعدو أن يكون تداولاً للقوة لفترات قصيرة . . بضع سنين . . لا تستطيع قوى الاستكبار خلالها أن تنفرد بالعالم ، وإنما يعود قانون «تداول القوة» للعمل وتغلب الروم بعد ذلك .

هذا القانون فى حد ذاته هو من «نصر الله» ومن إرادته العظمى فى حماية المستضعفين .

والرائع هو أن هذا القانون يُعَطَّلُ فى حالة واحدة . . وذلك عندما تقوم دولة الحق كما قامت دولة الإسلام فى عزها التليد . . فى

مثل هذه الحالة لاتحتاج الإنسانية إلى تداول القوة بين البغاة من أجل التــوازن . . لأنه لابغى هناك من الأصل ، ولأن دولة الحق تقوم على شريعة غراء تحمى العدل وتقوم على البر والقسط وتهدى للتى هى أقوم .

لذلك فإننى بشير بين يدى تغيرات عالمية تعيد التوازن بفعل قانون «تداول القوة» منطلقاً فى بشراى من سرآيات الروم العظيمة ، ولذلك فإن تسلط قوى الإستكبار وانفرادها بنا فى هذه الأيام العصيبة سوف يتطلب مزيداً من الجهد الخالص لوجه الله فى ميادين الحياة جميعاً بغية بناء القوة الذاتية روحياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . . وحينئذ يفرح المؤمنون بنصر الله القريب والبعيد . . القريب بإعمال قانون «تداول القوة» حتى يمنحنا سبحانه حصانة حضارية نعكف فيها على بناء القوة الذاتية ، والبعيد عندما يتولد عن هذه القوة الذاتية نظام دولى يقوم على البر والقسط ويهدى الإنسانية للتى هى أقوم .

وكما ذكرنا فى مقدمة المجموعة الأولى أننا لسنا ضد الجهود العظيمة التى بذلت ومازالت تبذل فى النظر فى القرآن من محاريب أخرى .

فأهل البيان يبحرون فى القرآن باحثين عن الدرر البلاغية والإعجاز البيانى ، وأهل التفسير الجهادى يبحرون فى القرآن باحثين عما يملأ القلب بالإيمان ويدفع الناس للجهاد ، وأهل الحقيقة يبحثون عن أسرار وأشواق وتجليات . . أما نحن فندعو أن

تنتظم عملية التفسير الحضارى وتبذل من أجله جهود متصلة . . والتفسير الحضارى ينمو مع الحضارة ، فهو ينشئها . . ولكنه يتأثر بنموها . . وكلما أوغلت فى الحضارة أوغلت فى التفسير ، وكلما أوغلت فى التفسير أوغلت فى الحضارة .

أدعو الله تبارك وتعالى أن يجعل القرآن الكريم ، ربيع قلوبنا ونور أفئدتنا وأن ينفعنا به لنصنع به حياة طيبة فى الدارين .

وعلى الله قصد السبيل .

(١)

تأملات حضارية فى قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦)
فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي
سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ
(٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا
إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات ٨٣ ـ ٩٨]

إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء ومن ثم فهو أبو المصلحين الدعاة ، ورسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام من شيعته كما كان هو من شيعة نوح عليه السلام ونحن جميعاً من شيعته ، قرأت هذه الآيات من سورة الصافات وراجعت تفاسيرها فى كتب كثيرة وظللت أقلب النظر فيها كثيراً بعيداً عن التفسيرات التوراتية ، مؤمناً أن كلمات القرآن تحمل حكمتها متدثرة فى التعبير القرآن

المعجز ، ووجدتنى فى النهاية تتفتح أمامى سبع حقائق انفجرت كلها من هذه الآيات البينات من سورة الصافات ، وهى حقائق تتعلق بطبيعة الدعوة والدعاة وبالمسار الذى سوف يتعرضون له مع قومهم ، أرجو أن أكون قد وفقت سواء السبيل وهاؤم ما مَنَّ الله علىَّ من فضل .

١ـ مجىء الدين مع مجىء الإنسان:

فالأنبياء صف متواصل عبر الزمان . . ونوح من أنبياء الله . . ومن شيعته إبراهيم أى أنه جاء بنفس الرسالة وعلى نفس المنهاج والدين كله من عند الله وهو ليس ابتكاراً بشرياً كما يدعى البعض فيقولون «نحن الذين قلنا بالتوحيد» .

٢ـ الداعية المصلح لابد أن يجرد قلبه من كل هوى ويأتى بقلب سليم:

فكم من دعوات إصلاحية قامت على الحقد الاجتماعى أو الحقد الاقتصادى أو الحقد الجنسى أو الحقد القومى أو الحقد السياسى فأفسدوا جميعاً وإن ظنوا أنهم يريدون الإصلاح . . وربما حققوا إصلاحاً آنياً أو موضعياً سرعان ما انقلب إلى دمار حضارى مبين .

٣ـ والداعية يبدأ إصلاحه فى أهله وقومه:

فهو أعرف الناس بأحوالهم وهو شاهد أمين على أوضاعهم ، ونقطة بدء أى رسول هى فى قومه ثم تتفرع منه رسل إلى أقوامهم . . كل رسول بلسان قومه ، واللسان ليس فقط اللغة ولكنه مجمل المدخل المنطقى إليهم ، وعندما قال إبراهيم لأبيه وقومه

ماذا تعبدون أئفكًا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين . . بدا من حديثه حيرة قاتلة وشك مبين ، لقد رأى آلهة كاذبة يعبدها الناس دون رب العالمين ، إن هذه الآلهة ليست مجسدة فقط فى حجارة وتماثيل ولكنها مجسدة فى سلوك اجتماعى يجسد الشرك تجسيداً ، والصنم ليس حجراً فحسب فكل من يعبد هواه يعبد صنماً والله يقول : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ . . وفى قلب كل إنسان تعيش أصنام شتى والمؤمن فى صراع دائم مع هذه الأصنام ، والناس تقرأ هذه الآيات من سورة الصافات ويظنون أنهم بمفازة مما كان عليه قوم إبراهيم ولا يتخيلون أنهم قد يكونون أسوأ منهم وأن الأصنام التى كان يتعبد بها قوم إبراهيم تعيش معهم فى أعمق أعماقهم ، ولذلك فسؤال إبراهيم لقومه ينبغى أن يصبح هو السؤال الدائم لكل مؤمن «ماظنى برب العالمين» أهو الرازق . . أم هذا الثرى الوثن الذى أمد إليه عيناى رغباً ، أهو القاهر؟ أم هؤلاء الجبابرة الأوثان الذين أخضع لهم رهباً؟ أعنده العزة جميعاً؟ أم أبتغيها عند الرؤساء والكبراء وأذل نفسى نصباً؟

وإبراهيم ترجم حيرته فى هذه الأسئلة المبينة ليعلمنا ماذا نسأل إذا أردنا إصلاح أنفسنا وإصلاح أمتنا .

٤ـ نجوم القوم دليل على عقائدهم:

فنظر نظرة فى النجوم ، فقال : «إنى سقيم» . . هذا منهج للنظر يتبين به الباحث عن الحق عقائد الناس التحتية بعيداً عن

ادعاءاتهم ومزاعمهم . . من هم النجوم الذين يسطعون في سماء المجتمع؟ من هم هؤلاء الذين يهتدى بهم الناس وتتعلق أبصارهم بحياتهم؟ هل هم الصالحون؟ أم هم نجوم المال ونجوم الجاه ونجوم القوة ونجوم الفن ونجوم اللهو؟ هل قارون هو نجم المال؟

هل هامان هو نجم السياسة؟

هل فرعون هو نجم القوة؟

هل السحرة هم نجوم المجتمع؟ وهل السحرة فى وقتنا إلا رجال الإعلام؟

هل علماء الأمة هم نجومها؟

هل الكادحون على ثغرات الأمة هم نجومها؟

هل الساهرون على أمن البلاد فى الداخل والخارج هم نجومها؟

وكيف تقاس نجومية الرجل؟ هل بالمال والجاه والسلطان أم بالعلم والتقوى والعطاء؟

وكيف رأى الأمر التابعى الجليل سعيد بن المسيب؟ هل يزوج ابنته للوليد بن عبدالملك بن مروان . . الخليفة؟ أم يزوجها لتلميذه الفقير عبدالله بن أبى وداعة ، وأيهما هو النجم فى عينى ابن المسيب؟ نترك مصطفى صادق الرافعى يحكى القصة بأسلوبه الرائع «وحى القلم : قصة زواج وفلسفة المهر» ونختصر الحوار بين رسول الخليفة الذى جاء ليخطب ابنة سعيد بن المسيب لابن الخليفة الوليد .

قال رسول الخليفة : أيها الشيخ من عسى أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله إليك؟ إنك لراع وإنها لرعية وستسأل عنها ، وما كان الظن بك أن تسىء رعيتها وتبخس حقها وأن تعضلها وقد خطبها فارس بنى مروان ، وإن لم يكن فارسهم فهو ولى عهد المسلمين ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليد بن أمير المؤمنين ، وأدنى الثلاث أرفع الشرف فكيف بهن جميعاً وهن جميعا فى الوليد؟

قال الشيخ : أما أنى مسئول عن ابنتى فما رغبت عن صاحبك إلا لأنى مسئول عن ابنتى ، وقد علمت أنت أن الله يسألنى عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما لايكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها ، يخرجون من حساب الفجرة إلى حساب القتلة ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغصب إلى حساب أهل البغى إلى حساب التفريط فى حقوق المسلمين ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها فى زحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرت فى حسن الرعاية لابنتى ، ولو لم أضن بها على أمير المؤمنين وابنه لأوبقت . . لا والله مابينى وبينكم عمل ، ولقد فرغت مما على الأرض فلايمر السيف منى فى لحم حى .

ولما كان غداة غد جاءه تلميذه عبدالله بن أبى وداعة ، وكان قد فقده أياماً فسأله الشيخ : أين كنت؟ قال : توفيت أهلى فاشتغلت

بهـا ، قـال الشـيخ : هلا أخـبـرتنا فـشـهـدناها ، ثم أردف : وهل استحدثت امرأة غيرها؟ فقال عبدالله : يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال الشيخ : أنا . قال التلميذ : بعد أن أفاق من سماعه كلمة أنا ، وتفعل؟ قال الشيخ : نعم . . نعم . . قم فأدع نفراً من الأنصار ، فلما جاءوا حمد الله وصلى على نبيه وزوجه على ثلاثة دراهم ، عبدالله بن أبى وداعة إذن هو النجم وليس الوليد بن عبدالملك فى قلب شيخنا سعيد بن المسيب ، وذلك زمن التابعين . . مقاييس النجومية مازالت فيه تضرب بقوة فى عنان السماء .

ونترك سعيد بن المسيب ونسأل الزبرقان بن بدر عن طبيعة النجم فى عينيه ولماذا ذهب يشتكى الحطيئة عندما هجاه الأخير وقال :

دع المكارم لا ترحـل لبغيتهـا

وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

لقد هاج الزبرقان وماج وذهب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشكو الحطيئة ، فسأل ابن الخطاب حسان بن ثابت رأيه ، فقال حسان : يا أمير المؤمنين لقد سلخ عليه . . أى بال عليه ، ما الذى أنكره الزبرقان فى أن يستكن فى قبيلته يأكل ويشرب ويلبس وأن يدعه من هذا السعى الدءوب فى سبيل المكارم .

المهم فى هذا كله أن الشاعر والشاكى وأمير المؤمنين وخبيره الشعرى كلهم يعرفون أن ما قاله الشاعر هجاء مقذع . ذلك زمن

بعيد . . وقل هذا البيت اليوم لمن تشاء ، ولسوف يعتبر ذلك مدحاً لا ذم فيه . . فطلاب المكارم فى هذا الزمان يحسبون مع المجانين .

ونعود إلى عنواننا الفرعى «نجوم القوم دليل على عقائدهم» والنجم لايكون نجما إلا بحب الناس له والتفافهم حوله ، ومن ثم فالتفاف الناس حول نجم وحبهم له دليل على حبهم لما يمثله في الحياة من قيم وسلوكيات وما ينبعث من عقائد فى أعمق الأعماق فالسلوك هو ترجمة للعقائد . . عرف الناس أو لم يعرفوا ، انتبهوا أو غفلوا ، والناس تهتدى بالنجوم ـ سواء في عالم المادة كما نفعل نحن فى هدى الطائرات والصواريخ ـ أو فى عالم الاجتماع . . والقرآن يقول «وبالنجم هم يهتدون» وهذه إشارة عميقة للمعترضين للإصلاح فى أن غالبية الناس يتأثرون بالنجوم . . والنجم جسم يسطع أو روح تسطع ومعظم الناس لايتأثر بالتفلسف قدر تأثره بالسلوك الساطع ، وفى مجتمع إبراهيم عليه السلام ، بعد أن نظر فى نجوم المجتمع الساطعة وجدهم يمرضون النفس الصافية والقلب السليم فقال : إنى سقيم ولو كان إبراهيم عليه السلام بيننا اليوم لقال إنى سقيم . وإنى والله مثل سيدى إبراهيم عليه السلام أقول وقد نظرت فى النجوم : إنى سقيم . وإبراهيم عليه السلام بدأ رحلته الإصلاحية مع قومه بقلب سليم وظل ينقب فى عقائدهم بأسئلة حيرى ينبههم بها إلى أمراض نفوسهم ثم نظر نظرة إلى نجوم قومه وانتهى إلى قرار واضح مبين أن القوم وعقائدهم ونجومهم يمرضون القلب ويسقمون الفؤاد وأعلن ذلك عليهم «فقال إنى سقيم» .

وهنا بدأت مرحلة جديدة من المواجهة مع المجتمع ، مرحلة التولى والإدبار .

٥ـ الحصار الإعلامى:

عندما أيقن القوم أن إبراهيم نظر فى عقائدهم وفى نجومهم ، ووضع يده على أمراضهم وجابههم بها بقوله : إنى سقيم . . وهذه المقولة البليغة الموجزة تعبر تعبيراً عظيماً عن الرفض القاطع لمجموع العقائد وما يمثلها من نجوم فى المجتمع ، عندما أيقن القوم ذلك حاصروه إعلامياً «فتولوا عنه مدبرين» ، والتولى عن الشخص هو إعراض عنه بترك الإصغاء له ، وتولوا مدبرين هو تعبير عن الحصار الإعلامى الذى فرضوه حول إبراهيم حتى لاتصل كلمته إلى الناس ولا تشيع دعوته بينهم وإن شئت أن تترجمها بلغة العصر لقلت لقد منعوه من وسائل الإعلام جميعها : صحافة وإذاعة وتلفاز ومنعوه من كل محفل يصل منه إلى الناس وتولوا عنه مدبرين .

٦ـ القفز خارج الحصار:

فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ.. ﴾ [**الصافات** ٩١] وأصل الروغ الميل إلى الشىء على سبيل الاحتيال يقال راغ إليه : مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، وراغ الثعلب روغا وروغاناً : مال إلى جانب ليخدع من خلفه ثم تجوز به عما ذكر .

وإبراهيم عليه السلام ، فى مواجهة الحصار لابد أن يتخذ من الحيلة ما يعينه على التفلت . ومن الحيلة أن يظهر الميل لهؤلاء المدبرين وأن يغير أسلوبه المباشر فى نقد أوضاعهم وأن يخترع أسلوبا غير مباشر للوصول إلى أهدافه . إنه هنا يظهر ضعف هذه الآلهة التى لاتأكل ولا تنطق ويراوغ فى حجته حتى لايستفز جمهوره وإنما يضرب ضرباته لتعرية تهافت العقائد من غير أن يستثير حفيظة الناس ويستخدم فى ذلك كل إمكانياته الخيرية والتى يعبر عنها القرآن «باليمين» .

فهى إذن مراوغة بقوى الخير وليست مراوغة خبيثة كتلك التى تستخدمها قوى الشر إعلاميا ضد شعوبنا فالمطلوب هو إذاً «المراوغة الخيرة» للتفلت من الحصار ومواصلة الإصلاح . ونعتقد أن هذا من الدروس الحركية البالغة الأهمية والتى ينبغى أن تتأسى بها كل الحركات الإصلاحية فى أوطاننا ونختصرها فى جملة واحدة .

«فى أزمنة الحصار لابد من المراوغة باليمين» واليمين مرة أخرى هو كل القوى الخيرية التى تملكها حركات الإصلاح فى الأمة . . ذلك والله أعلم .

٧ـ الإبتلاء ومنحة الصبر الجميل:

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .

قلنا إن إبراهيم راوغ فى معركته بكل قوى الخير التى يملكها حتى حقق الله له انكسار هذه الأصنام وتحطيم هذه الأوثان ، وبدأ الذين أعرضوا مدبرين يدركون مدى مصيبتهم فى آلهتهم فأقبلوا إليه يزفون أى يسرعون خطاهم كأنهم يطيرون . . لقد نجحت المراوغة باليمين وآتت أكلها فى تحطيم الأوثان قبل أن يفيق المستكبرون ، فلما رأوا أوثانهم وقد تحطمت استجمعوا قواهم وأقبلوا يسرعون إلى إبراهيم وكان لابد من المصارحة الحاسمة الآن : قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، وأذكر فى عصرنا حركة الإمام الشهيد حسن البنا . لقد ظل هذا الرجل يراوغ بحركته من عام ١٩٢٨ حتى أواخر الأربعينيات ولما اكتشفت القوى العالمية أثر حركته فى النفس الإسلامية ، والذى فضحته حركات المقاومة فى فلسطين ومصر أقبلت عليه كل القوى يزفون . صحيح أن جوهر دعوته قد أفلت من الحصار ولكن الجزء الحركى السياسى مازال يئن تحت الضربات الاستعمارية فلم تكتمل الصحوة . ورغم ذلك فإن الثلاثة رؤساء الذين قادوا مصر فى نصف القرن الأخير مروا جميعاً بمدرسته وقد نهلوا بقدر أو بآخر من رحيق دعوته ، بل إن هذا الرجل قد ترك أثراً بالغاً فى الأمة ، فلا أعرف شخصية ذات بال فى حياتنا إلا كان لدعوته أثر معلوم فى بنائها النفسى . . لقد انتشرت دعوته بعيداً بعيداً عن التنظيم الذى يحمل اسم حركته اليوم وأصبح الحصار المفروض على التنظيم أضعف من أن يؤثر على الدعوة التى أمتدت جذورها فى كل آفاق الأرض .

ونعود إلى إبراهيم «قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم» وهنا بدأ الابتلاء وهو ابتلاء له بنيان مخطط وليس مجرد حركة غاضبة عفوية ، بنيان يكيد لإبراهيم ولدعوته ولقد انتبهوا الآن وبدأوا يخططون هيكل كيدهم وبدأ الابتلاء ولكن الله يزود عبده المؤمن إبراهيم بالصبر الجميل بل ويجعل جحيم تخطيطهم برداً وسلاماً عليه .

وفى القرآن أمثلة مبينة للمنح التى يغدقها الله على عباده عندما تحيط بهم المحن من كل جانب ، ففى الحديبية أنزل الله سكينته وجعلها من جند الله .

وفى بدر غشى الله المؤمنين النعاس أمنة منه وأيدهم بجنود لم يروها . . وكما انقلبت محنة إبراهيم فأصبحت برداً وسلاماً عليه فإن الله تبارك وتعالى يمن على المومنين فى كل زمان ومكان بفضله ورحمته فتنقلب المحن الضروس إلى أمن وسكينة وسلام ويعجب الذين لايعرفون ويقولون : هؤلاء كيف يتحملون مالا يطيقه أولو العزم من الرجال ، وما علموا أن السكينة والبرد والسلام هم من جنود الله ينصر بها من يشاء من عباده ولله عاقبة الأمور .

* * *

(٢)

دروس حضارية في قصة يونس عليه السلام مع قومه

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٨]

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨]

يقول صاحب الظلال:

«وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه فأنذرهم بعذاب قريب وغادرهم مغضباً آبقاً فقاده الغضب إلى شاطىء

البحر حيث ركب سفينة مشحونة وفى وسط اللجة قادتها الرياح والأمواج وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوبا عليه لأنه ارتكب خطيئة ، وأنه لابد أن يلقى فى الماء لتنجو السفينة من الغرق ، فاقترعوا على من يلقونه من السفينة فخرج منهم يونس وكان معروفاً عندهم بالصلاح ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه فى البحر أو ألقى هو نفسه فالتقمه الحوت وهو مُليم أى مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التى أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضبا قبل أن يأذن الله له ، وعندما أحس بالضيق فى بطن الحوت سبح الله واستغفره ، وذكر أنه كان من الظالمين وقال «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» ، فسمع الله دعاءه واستجاب له فلفظه الحوت وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء فأنبتنا عليه شجرة من يقطين وهو القرع يظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذى يقال إنه لايقرب هذه الشجرة فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

وقبل أن نمضى مع اللمحات الحضارية لهذه القصة العظيمة نورد معانى بعض الألفاظ الهامة فى القصة : (صفوة البيان لمعانى القرآن للشيخ حسنين مخلوف) .

أبق	أبق العبد أى هرب ومضى بدون إذن سيده
المشحون	المملوء
فساهم	فقارع بالسهام . . أى اشترك فى قرعة

المدحضين	المغلوبين
التقمه	ابتلعه بسرعة
مليم	مكتسب مايلام عليه
النبذ	الطرح والإلقاء
العراء	الأرض الواسعة التى لانبات فيها ولا معلم
يقطين	الشجر الذى لايقوم على ساق مثل القرعة الرطبة يقال لها يقطين

الرسالة أو واجب الوقت:

لكل إنسان فى هذه الحياة رسالة تمليها عليه أمور عدة : عقيدته ، شريعته ، إمكانياته الذهنية والروحية والجسدية والعلمية ، خريطة المهام المطلوبة فى المجتمع بأولوياتها . . كل هذا يحدد فى النهاية لكل إنسان واجب وقته ومكانه ، ويحتاج المؤمن إلى أمرين هامين يستعين بهما على تحديد رسالته أو واجب وقته ومكانه :

أولا : أن يخلص لله ويتجرد من كل الهوى أى «يخلع نعليه» بالتعبير القرآن أو يأتى ربه بقلب سليم بتعبير قرآنى آخر .

ثانيا : أن يحصى كل إمكانياته الخيرية وكل ما حباه الله من قدرات خاصة أى يحصى «ما بيمينه» .

والدرسان تعلمناهما من قصة موسى عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

ثم بعد ذلك سأله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ .

النداء كان أمراً بالتجرد فالمهمة شديدة القداسة .

والسؤال كان تعليماً لنا بإحصاء ما لدينا من قوى الخير التي نملكها .

وكل مؤمن مطالب بالأمرين دوماً . . ذلك حتى يصبح قادراً على تحديد واجب وقته ومكانه والله أعلم .

من أجل ذلك نكرر ما شاء الله لنا أن نكرر فى كل يوم وليلة هذا الدعاء الجميل : «**اهدنا الصراط المستقيم**» أى أهدنا أن نتعرف على ما يرضيك منا ويرضينا عنك من واجبات نضطلع بها فى حياتنا الدنيا .

ومتى عرف الإنسان واجبه أو ظن ظن اليقين أنه يعرفه فعليه أن يستعين عليه بالله ويستمسك به مهما أوذى فى سبيل ذلك ومهما كانت وعثاء الطريق وكآبة المنظر . . ولا يتولى بعيداً عنه كما تولى يونس الذى أبق إلى الفلك المشحون .

يقول الرافعى على لسان سعيد بن المسيب عليهما رحمة الله فى تفسير قوله تعالى : «**وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون**» ، إذا هُدى المرء سبيله كانت السبل الأخرى فى الحياة إما عداء له وإما معارضة وإما ردا . . فهو منها فى الأذى ، أو فى معنى الأذى ، أو عرضه للأذى ، لقد وجد الطريق ، ولكنه أصاب العقبات أيضا ، وهذه حالة لا يمضى فيها الموفق إلى غايته ، إلا إذا

أعانه الله بطبيعتين : **أولاهما** العزم الثابت ، وهذا هو التوكل على الله ، **والأخرى** اليقين المستبصر ، وهذا هو الصبر على الأذى .

ومتى عزم الإنسان ذلك العزم ، وأيقن ذلك اليقين تحولت العقبات التى تصده عن سبيله ، فآل معناها أن تكون زيادة فى عزمه ويقينه بعد أن وضعن ليكن نقصاً منهما ، فترجع العقبات بعد ذلك وإنها لوسائل تعين على الغاية ، وبهذا يبسط المؤمن روحه على الطريق ، فما بد أن يغلب على الطريق وما فيها ، ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً ـ على سعتها وتناقضها ـ إلا سبيله وما حول سبيله ، فهو ماض قدماً لا يتردد ولا يفتر ، ولا يكل وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً .

ومن ثم لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت إلا نفاذاً من طريق واحدة دون التخبط فى الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمر مهما طال إلا مدة صبر فى رأى المؤمن .

وعزيمة النفاذ وعزيمة الصبر ، هما الضوء الروحانى القوى الذى يكتسح ظلمات النفس ، مما يسميه الناس خمولاً ودعة وتهاوناً وغفلة وضجرا ونحوها (الرافعى ـ وحى القلم) ، والمؤمن فى كل أرض وزمان يتأسى بأهل الكهف فى بحثهم عن الطريق فيقول «**ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا**» ، فإذا هداه ربه إلى الطريق يهتف خاشعا : «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا مرفقا» ، فمن رحمة الله أن يرشدهم إلى طريق من أمرهم أى مما لهم به خبرات متراكمة ، ثم من رحمة الله أن يعطيه المرفق الذى يرتفقون به فى الطريق ويكون أيضاً من أمرهم أى متسقاً مع مجمل أحوالهم .

التهيىء للطريق عندما يبلغ الإنسان مرحله السعى:

أقف كثيراً عند قوله تعالى عن إبراهيم وابنه عليهما السلام ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

هذه الآيات تعلمنا درساً تربوياً بالغ الأهمية . . فالإنسان إذا بلغ السعى الراشد فى الحياة لابد أنه سيصادف العقبات كما أسلفنا ومن ثم فلابد من تمحيصه وتمييزه واكتشاف قدراته الخيرية وصلابته العقيدية . فى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام رأى إبراهيم رؤيا ظن منها أنه مطالب بذبح ابنه الذى بلغ معه السعى . . أى بلغ معه حد الاستعداد للمشاركة فى مهامه فى الحياة . . ولأنهما إبراهيم وإسماعيل فكان الابتلاء شديداً على الاثنين . . . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ .

ورغم شدة البلاء فقد نجح إبراهيم وإسماعيل . . إسماعيل يقول لأبيه : افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، والأب يلقيه على جانب وجهه ويهم بالذبح ، وهنا تناديه السماء : لقد

صدقت الرؤيا . . أى حققت هدف الرؤيا . . من الانصياع التام للمشيئة الإلهية أنت وابنك . . فاستحققتما أن يكون هذا الحدث عبرة للآخرين ودرسا دائماً للمؤمنين وقمة العطاء لعظيمين أسلما لله رب العالمين .

ونحن أتباع إبراهيم وإسماعيل نستخلص من الدرس أنه يمكننا فى برامجنا التربوية أن نصمم للذين يبلغون السعى اختبارات القوة والصلابة النفسية والجسدية . . اختبارات تختلف من سعى إلى سعى . . كل سعى فى الحياة له اختبارات تلائمه ، ويبقى دائماً اختبار إبراهيم وإسماعيل هو أعظم الاختبارات فى تاريخ البشرية ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ .

فإذا أسلمت وجهك لله ، وهداك الله إلى سعيك الذى كتبه عليك ، ووفقك إلى ما ترتفق به وزودك بالتوكل والصبر على الأذى فإنك بإذن الله تكون قد هديت صراطاً مستقيما .

الآبقون إلى الفلك المشحون:

قلنا إن كل إنسان يركب فلكه الذى قدره الله له لتحقيق رسالته لابد وأن يصبر على الأذى الذى يحيط به من كل جانب ، ولا يصرفن بصره إلى أفلاك أخرى ، ربما تبدو له مشحونة بالنقص الذى يعتريه فى فلكه ، فإن كان فى فلكه نقص فى المال أو الثمرات وبدا له فى فلك آخر أنه مشحون بالمال والثمرات ، فلا يأبق من فلكه الذى يحمل معه واجبه ويأوى إلى الفلك الآخر هرباً من هذا الواجب المقدس . . فالهجرة من فلك إلى فلك لا تكون إلا إلى واجب .

ولا أعرف إنساناً مؤمناً أبق من فلك إلى فلك من غير ما يمليه الواجب إلا أحاطت به الظلمات وانكدرت سماؤه والتقمه الحوت وهو مُليم .

ونحن هنا لا نقول برمزية قصة يونس عليه السلام ، وإنما نقول إن لها أشباهًا ونظائر فى حياتنا فبطن الحوت المظلمة شديدة الظلمة يناظرها فى الحياة ألوان من العيش مثلها فى الظلمة أو أشد منها وقد تكون الظلمة داخل النفس لا خارجها . . فتشتعل النيران فى قلب الإنسان تلهبه سعيرا . . كحال هؤلاء الثلاثة من المؤمنين الذين تخلفوا عن غزوة «العسرة» فيصفهم القرآن :

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . ﴾ [التوبة : ١١٨]

الخـــــروج:

والناس فى بطن الحوت طائفتان . . طائفة نسيت واجبها ونسيت ربها فهى فى الظلمات إلى يوم يبعثون . . وطائفة تذكرت واجبها وتذكرت ربها وندمت على ما فعلت وقالت مثل يونس عليه السلام : ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ومصيبة المرء الكبرى أن يكون فى بطن الحوت تحيط به الظلمات من كل مكان ولا يدركه الإحساس بما قدمت يداه من قبل وما

ترك وراءه من واجب أفضى به إلى ماهو فيه . بل إننى أحياناً أرى أقواماً يجاهدون من أجل البقاء فى بطن الحوت .

أعرف أقواماً ابتعثتهم الدولة على نفقتها فلما أنهوا دراستهم أبقوا إلى الفلك المشحون بالنظام العلمى والبحثى والحياتى ونسوا وراءهم أمة فى حاجة إلى علمهم وبحثهم واشترطوا لعودتهم أن تنشىء لهم دولهم البائسة مثل ماهم فيه من فلك مشحون . أقارن ذلك بالأخ الشهيد الدكتور على شمران ، الذى أصبح فيما بعد وزيراً للدفاع فى إيران بعد الثورة . وكان ذلك فى عام ١٩٧٠ على ما أذكر عندما طلبنى د . على من بيركلى فى الولايات المتحدة يريد أن يتحدث معى فى أمر هام وكنت أسكن فى مساكن جامعة ستانفرد على بعد ساعتين من مسكنه ، وعندما ألتقينا سألنى المشورة فى رغبته أن يترك الولايات المتحدة ليلبى دعوة الشهيد موسى الصدر فيذهب إلى لبنان لينشىء مدرسة للصنائع لخدمة أبناء الجنوب اللبنانى ، وكان الدكتور على فى تلك الفترة يعمل عالماً باحثاً فى إحدى الشركات الصناعية وهو خريج جامعة بيركلى الشهيرة فى الهندسة الإليكترونية ، قلت مازحاً . . وتترك وراءك التقدم البحثى والمركز العلمى . . قلتها وعيناى تدمعان حباً لهذا الشهيد الحى وسعادة به . . وتعانقنا ومضى ولم نلتق بعدها حتى علمت باستشهاده عندما كان وزيراً للدفاع فى حرب الخليج الأولى . . رحمه الله . . وأعرف أقواماً تركوا مواقعهم ذات الشوكة فى بلادهم وأبقوا إلى الفلك المشحون بالبترول فى الخليج . . يشربون الجاز كما أشرب اليهود العجل . . ثم إنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ومن الأمثلة العظيمة لرجال أفذاذ وفقهم ربهم بإخلاصهم لواجب وقتهم وزمانهم مثال الإمام الشهيد حسن البنا عليه رحمة الله . . فقد ظن الرجل فى سن مبكرة أن مهمته فى الحياة مرتبطة بعمليات التجديد الدينى فى الأمة . . فلما أنهى المرحلة الثانوية ظن أنه لا يحتاج إلى أكثر مما حصل من علوم وبدأ يفكر فى التفرغ لهذه المهمة الحضارية . وكان قد تقدم إلى امتحان على مستوي القطر لدخول كلية دار العلوم . وإنه فى هذه الحيرة حتى تظهر النتيجة وإذا به الأول على مستوى القطر ، فيظن أن ذلك إيذان من الله باستكمال الدراسة فى دار العلوم ، فيمضى فى هذه الدراسة ويتخرج من دار العلوم ويكون ترتيبه الأول ، ويرشح لبعثة دراسية ، ويسأل نفسه نفس السؤال : ألا يكفينى ما حصلت من علم لسعيى فى مهمتى الحضارية أم ماذا!!

وتضطرب الحياة فى أوروبا وتؤجل البعثة فيعزم عزمة صادقة علي التفرغ الكامل لمهمته الحضارية ويصم أذنه عن نداء العمل فى الخارج ويعطى حياته كاملة لمهمته التجديدية حتى يذهب إلى ربه شهيدا عام ١٩٤٩ .

والعجيب فى أمر هذا الشهيد العظيم ما رواه لى الأستاذ مناع قطان ، فلقد ذهب إليه فى بيته قبل استشهاده بأيام وحمل له رسالة من بعض إخوانه يطلب منه فيها أن يهرب معهم لأنهم يظنون أن الحكومة تخطط لقتله . فقال له البنا الشهيد : قل لإخوانك يا مناع إن مهمة حسن البنا قد انتهت ، ولو عشت لكم ألف عام فلن أقدم لكم جديداً . . كانت مهمتى كمهمة مهندس

الزراعــة . . يخطط الأرض . . ازرعـوا هنا كـذا وهناك كـذا . . وقـد فعلت . . فلن أهرب يا مناع مع أحد . . والله يفعل ما يريد . . رحم الله حسن البنا وغـفـر لنا ولزعـمـائنا وقـادتنا فى كل المواقع ، لا يخرجون من مواقعهم إلا بالموت ، أما الداعية الموفق فيعرف متى يتقدم ومتى ينسحب وفى كل لحظة يحصى ما بيمينه . . ويظل فى موقعه ما بقيت معه إمكانياته واحتاجه موقعه ولم يكن هناك من هو أقدر منه عليه فإن رأى نقصاً هنا أو هناك انسحب فى يسر وطمأنينة ، فالأمر أولاً وآخراً هو لله رب العالمين .

إن أول الطريق للخروج هو أن يراجع المؤمن نفسه ويستغفر لذنبه ويحتشد للخروج ويجمع نفسه له والله تبارك وتعالى سوف ينبذه خارج الحوت وسوف ينبت عليه من رحمته فى هذا العراء النفسى والسقم القلبى شجرة من يقطين يظلله بها ليمنحه برداً وسلاماً ويوفقه من جديد فى موقعه القديم أو فى أى موقع يرتضيه له رحمة منه وفضلا ، فكما أنبت الله فى الأرض العراء شجرة اليقطين تظلل يونس عليه السلام فإنه سبحانه ينبت حول المؤمنين فى صحراء أنفسهم وصحراء مجتمعاتهم أشجاراً ظليلة تحيطهم بالبرد والسلام والسكينة ويبعثهم من جديد فى مواقعهم التى هجروها من قبل ، فتؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها ، وما أخفقوا فيه من قبل يكلل الله جهدهم فيه بالنجاح والرشاد كما كان حال يونس : ﴿ **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ . ذلك والله أعلم وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

(٣)

فى معنى «قصد السبيل» وتطبيقاته الحضارية

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾ [النحل : ٩]

يقول صاحب الظلال عليه رحمة الله :

«والسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذى لايلتوى كأنه قصدًا إلى غايته فلا يحيد عنها ، والسبيل الجائر هو السبيل المنحرف المجاوز للغاية لايوصل إليها أو لايقف عندها» ، ويقول الشيخ مخلوف فى «صفوة البيان لمعانى القرآن :

وعلى الله قصد السبيل : بيان طريق الهدى ، بنصب الدلائل عليه وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، والسبيل : الطريق . والقصد منه : هو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه وهو الإسلام . ويقال : سبيل قصد وقاصد أى مستقيم كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك ولا يعدل عنه .

وأعطى محمد أسد فى ترجمته معنيين:

المعنى الأول:

يتفق مع ما أورده سيد قطب ومخلوف :

And (because He is your creator) it rests with God alone to show you the right Path:

وترجمته «ولأن الله هو خالقكم فإنه وحده الذى بيده بيان الطريق المستقيم لكم» .

والمعنى الثانى:

Upon God ersts the (showing of the) Goals of the righ Path

وترجمته : «لأن الله هو خالقكم فإنه وحده الذى يحدد لكم مقاصد أو أهداف الطريق المستقيم» .

وأظن أن الترجمة الثانية هى الأدق والأقرب لفلسفة القرآن ، فالله تبارك وتعالى يحدد لنا الغايات التى ينبغى أن نسعى إليها ومن ثم نصمم طرقنا للوصول إليها ، هذا الأمر متطابق فى العالم المادى وفى عالم الاجتماع فكل القوانين المادية ـ قانون نيوتن مثلا ـ يمكن تحويلها إلى مقاصد كلية ، والمادة تخضع طوعاً لهذه المقاصد الكلية فتسلك طرقاً تؤدى إلى تحقيق هذه المقاصد . . أما الإنسان فإنه صاحب اختيار وهو يصمم طرقه لتحقيق هذه المقاصد قدر استطاعته ، وكما أن المقاصد فى المادة يمكن أن تكون تعظيم قيمة إيجابية أو تصغير قيمة سلبية فإنها كذلك فى عالم الاجتماع : تعظيم قيمة إيجابية أو تصغير قيمة سلبية .

فمثلا نسأل : ماهو القصد فى السبيل الاقتصادى؟ . . نبحث عن هذا القصد فى القرآن الكريم وهذه مهمة علماء الاقتصاد المسلمين

ولأننى لست منهم فسأذكر بعض الاحتمالات التى بدت لى من قراءاتى لبعض نجوم هذه العلوم وللقرآن الكريم كذلك .

فمثلا ينبغى أن تكون من غاية أى سبيل اقتصادى أن نقلل من «تعظيم ثروات البعض بصفة دائمة وتصغير ثروات آخرين بصفة دائمة» ، وذلك حتى لايكون المال دولة بين الأغنياء من الناس .

ومثلا فى التعاملات الاقتصادية ينبغى أن نحاول تصغير الفرق بين العزم والغنم لكل المشاركين فى المعاملة . . وإلا اقتربنا من الربا والمعاملات الربوية التى يزيد فيها الغرم عن الغنم بالنسبة لطرف ويزيد الغنم عن الغرم بالنسبة لطرف آخر .

وأى حل لهذه المعضلة لن يقضى تماماً على الفرق بين الغرم والغنم بالنسبة للطرفين ولذلك فالمطلوب هو إبداع النظم الاقتصادية التى تقلل ما استطاعت بين الغرم والغنم لجميع الأفراد ، ولا أعتقد أن المحاولة التى قامت بها بعض البنوك ـ تحت مسميات الاقتصاد الإسلامى ـ قد حققت حلا لهذه المشكلة ، ومازلنا ننتظر من بنوكنا الوطنية أن تبحث عن حلول أكثر رشداً وربما تكون المشكلة هى النظام البنكى نفسه والذى يستدعى من علمائنا فى الاقتصاد نظماً بديلة .

وبالمناسبة فإننا فى علوم المادة نسمى السبيل الذى تسلكه المادة لتحقيق مقاصدها التى فطرها الله عليها نسميه الطريق المثالى the optimal path أو بلغة القرآن «الصراط المستقيم» وكذلك فى علوم الاجتماع ، نعلم أن المقاصد التى حددها الله لنا فى حياتنا لها طريق أو سبيل مثالى ، قد لانعرفه ولكننا موقنون بوجوده وينبغى

أن نبحث عنه وأن نسعى للاقتراب منه قدر طاقتنا . . ونحن ندعوه فى كل صلاة : اهدنا الصراط المستقيم . . فربما لانستطيع أن نلغى الفرق بين الغرم والغنم فى معاملاتنا ولكن ينبغى أن يكون هدفنا فنصمم السبل الاقتصادية نعيد تصميمها مرات ومرات حتى نقترب قدر الاستطاعة من تقليل الفرق بين الغرم والغنم قرابة الصفر ، ولا يحسبن امرؤ أن هذا أمر يسير فتحديد الغرم والغنم فى عالم أسعار متغير آناء الليل وأطراف النهار ، وفى ظل اقتصاد عالمى يضغط علينا ضغطاً متصلا ، وفى ظل نظام تنموى مقهور من قوى اقتصادية داخلية وخارجية يصبح هذا التحديد غاية فى الصعوبة ومن ثم فمبدأ «اتقوا الله ما استطعتم» هو المطلوب ، فإذا لم نستطع الوصول إلى الصفر بين الغنم والغرم فلنقلل قدر الاستطاعة من غير أن يتهم بعضنا بعضاً ويزايد عليه فى الدين ، ولننظر كيف تصرف رسول الله ﷺ فى فىء بنى النضير تأكيداً لما رأيناه من أنه من مقاصد السبيل الاقتصادى أن نقلل من تعظيم ثروات البعض بصفة دائمة وتصغير ثروات آخرين بصفة دائمة .

والفىء ـ فى لغة القرآن ـ هو ما أخذه المسلمون من أعدائهم سلماً من غير حرب والله يقول فى سورة الحشر ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا

آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فالمسلمون لم يحاربوا فى هذه الغزوة بل ذهبوا رجالا إلى بنى النضير وكانت على بعد ميلين من المدينة ومن ثم لم يوجفوا أى لم يسرعوا بخيلهم وإبلهم إليها فما غنموا منهم ليس غنيمة يقسم أربعة أخماسها على المقاتلين ويعطى خمسها لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وإنما يظل نصيب هذه الأقسام كما هى الخمس ، وتذهب الأربعة أخماس خالصة للدولة ممثلة فى رئيسها يوزعها حسب المقاصد الكلية لاقتصاديات المجتمع ، وهذا ما فعله رسول الله بأمر ربه إذ أعطاها لفقراء المهاجرين ولم يعط منها الأنصار شيئاً سوى ثلاثة نفر من فقرائهم وقال للأنصار : «إن شئتم قسمت أموال بنى النضير بينكم وبينهم» .«أى المهاجرين» وأقمتم على مواساتهم فى ثماركم وإن شئتم أعطيتها للمهاجرين دونكم وقطعتم عنهم ما كنتم تعطونهم من ثماركم «فقالوا بل تعطيهم دوننا ونقيم على مواساتهم فأعطى

المهاجرين دونهم فاستغنى القوم جميعاً المهاجرون بما أخذوا والأنصار ربما رجع إليهم من ثمرهم .

وخلاصة الدرس أن المال الذى يأتى للدولة من غير جهد يتكبده الناس مثل ما يفتح الله به على الناس من ركاز ينبغى أن تتصرف فيه الدولة بطريقة تقلل من هذا التفاوت فى الأموال بين الذين يعملون جميعاً بعد أن تعطى خمسه للحالات الخاصة من الضعفاء الذين لايقدرون على عمل .

وإذا أطلقنا مفهوم الهجرة على كل الرجال والنساء الذين هاجروا إلى أعمالهم ابتغاء مرضاة الله ، هؤلاء القضاة وهؤلاء المعلمين وهؤلاء القائمين على أمننا فى الداخل والخارج وأمثالهم وأضرابهم ممن هاجروا إلى وظائفهم يؤدونها بإحسان لاتلهيهم عن ذلك تجارة أو بيع ، ماداموا قد جعلوا وظائفهم ذكر الله فأخلصوا وأحسنوا وتفرغوا لها بعلمهم ومهارتهم . . هؤلاء هم ورثة أهل الهجرة . . بدونهم لاتقوم للدولة قائمة . . كيف تبدع الدولة نظامها الاقتصادى لتحقيق ما ذكرنا من مقاصد وما لم نذكر مما يستنبطه علماؤنا فى الاقتصاد من القرآن والسنة فى آيات متدثرة فى آيات الذكر الحكيم أو فى تلافيف تطبيق نبوى فى دولة المدينة . . كيف تبدع الدولة مثل هذا النظام ، وكيف تنشىء المعاهد المتخصصة والمراكز البحثية لهذا الأمر هو فرض عين ينبغى أن يجتهد فيه ذوو العقول الجبارة فى عالم الاقتصاد أو قل نفر الفقه الاقتصادى .

وقبل أن نترك هذه الآية العظيمة «**وعلى الله قصد السبيل**» نتذكر آية أخرى ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ

الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، والمفسرون يفسرون ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾ أى اعتدل فيه وتوسط بين البطء والإسراع من القصد وهو العدل واستقامة الطريق وضد الإفراط كالاقتصاد وهذا المعنى مؤكد فى الآية ولكننا ربما نضيف معنى تحتمله اللغة وتؤكده روح القرآن ، فنقول «واقصد فى مشيك» أى اجعل لحركتك فى الحياة غاية أو قصداً ، والمشىء يجىء فى القرآن كثيراً بمعنى الحركة فى الحياة «**وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه.. وإليه النشور**» وهذا مطابق للحديث «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى**» ، فكل عمل ذى بال وكل حركة ذات بال لابد أن تكون حركة ذات قصد والقصد الإسلامى يحدده الله وحده ، فعلى الله قصد السبيل . . حتى الترويح والترفيه لابد أن يكون قاصداً .

ولقد أنكر الرسول ﷺ بشدة على من قتل عصفوراً عبثاً وأخبر أنه سيشكو إلى الله قاتله يوم القيامة قائلاً : **يا رب قتلنى عبثاً ولم يقتلنى منفعة .**

كما أنكر النبى ﷺ استخدام الشئ فى غير ما خلق له بالفطرة أو بالعادة فقد جاء فى الصحيح **أن رجلاً ركب بقرة فتكلمت فقالت : ما لهذا خلقت إنما خلقت للحرث .**

ونعود فنقول إن كل حركة فى الحياة لابد أن تكون ذات قصد شرعى . . وسواء كانت هذه الحركة على مستوى الفرد أو الجماعة أو الدولة لابد أن تلتزم بالمقاصد الشرعية التى استنبطناها من عقائدنا وشرائعنا التى جاءتنا وحياً وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

(٤)

من شروط الإحياء *

تسلمت دعوة الأخ الأستاذ زياد الدريس للمشاركة فى ندوة صحفية يسأل فيها : «**كيف تقتحم الأمة متغيرات المستقبل من خلال ثوابت الماضى؟**» . . تحدث فيها عن المحنة التى تعيشها الأمة وأن هذه المحنة الكبرى تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم ، وأن الإنسان العربى المسلم يغط منذ زمن طويل فى سبات عميق لا تلوح منه بوادر يقظة ، فهو لا يفكر إلا فى ذاته من خلال لذاته وأطماعه الفردية ، بعيداً عن هاجس النهوض بالجماعة والأمة التى كَرَّس الإسلام الدعوة إلى تبنيها والتمثل بها .

ثم يسأل الأخ زياد فى النهاية عن العلاج المأمول . . على مستوى الفرد والجماعة والدولة . . وما أن فرغت من قراءة رسالته الواعية حتى رأيت وكأنه هو هذا الرجل الذى مَرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، وأن الله قد بعثه مرة أخرى فى القرن العشرين ، ولنعد إلى قصة الرجل الأول «أو زياد الأول» ، يحكى القرآن فى سورة البقرة(٢٥٩) ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ . . فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال

* كتبت هذه الورقة استجابة لنداء الأخ الأستاذ زياد الدريس مسئول تحرير مجلة «المعرفة» التى تصدر عن وزارة المعارف السعودية .

كم لبثت؟ . . قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام . . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه . . وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنشزُها ثم نكسوها لحما . . فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . . فى جوف هذه القصة تكمن «سنة حضارية» بالغة الأهمية فهذه القرية خاوية على عروشها جميعا . . عرشها الاجتماعى وعرشها الاقتصادى وعرشها السياسى وعرشها العمرانى . . كل عروشها منهارة . . وهى خاوية على كل العروش . . وصاحبنا الذى مَرَّ بهذه القرية يسأل : كيف ومتى يحيى الله هذه القرية بعد أن ماتت؟

فى أحوال تلك القرية احتاج الأمر إلى مائة عام . . أربعة أو خمسة أجيال متعاقبة . . جيل فى إثر جيل ، جيل يَنْتَبه للخلل ويشير إليه ، وجيل يصلح الخلل العقيدى والنفسى وجيل يطرح تصوراً للأبنية الثقافية والتنموية المرجوة وجيل يحاول البناء على هذه الأطروحات الثقافية والتنموية وجيل تصل إليه ثمرات البناء : بلدة طيبة ورب غفور .

قلت إن الأمر احتاج فى حالة هذه القرية إلى مائة عام ولكن يمكن أن يزيد هذا الزمن أو ينقص بالنسبة لقرى أخرى ، المهم أن عملية الإحياء تحتاج زمنا . . ومع الزمن صبرا .

فى حالتنا الراهنة نحن نحاول «المعاصرة تحت صليل السيوف» كما قلت من قبل فى كتابى «مقدمات جديدة فى مشاريع البحث الحضارى ـ الفصل الخامس» وصليل السيوف الذى أشرت إليه هو صليل السيوف المشوقة فوق رقابنا من الداخل والخارج تحرس تخلفنا وتحول دون تقدمنا فتزيد الإعاقة الحضارية ضراوة وشدة .

في مثل هذه الحالة ربما يزيد الوقت أو ينقص عن المائة عام في قرية مجاهدنا القديم ، المهم أن نردد قول موسى عليه السلام لفتاه :
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾[الكهف ٦٠] فإن كان مجمع البحرين عند موسى موقعاً جغرافياً يلتقى فيه مع العبد الصالح ، إلا أن الدروس التى تعلمناها من هذه الرحلة العظيمة هى دروس لكل أمة تريد أن تنهض ولكل داعية يريد أن يصلح ، وأول درس نتعلمه هو فى التكامل المعرفى بين المعرفة المادية والمعرفة الروحية ، فالمعرفة المادية وحدها موات لا خير فيه والمعرفة الروحية وحدها موات لا خير فيه . . وإنما الحياة كل الحياة فى تكاملهما والتقائهما وتجميعهما لينتج عنهما تيار دافق يحمل فى طياته مسلكاً ومنهجاً . . أو بتعبير القرآن الكريم . . «واتخذ سبيله فى البحر سَربًا» فبعد أن وصل إلى «مجمع البحرين» تدفقت الحياة فيه بعد موات وأخذ سبيله فى الحياة مسلكاً ومذهباً .

والحضارة الغربية مازالت تجرد معرفتها من شقها الروحى ما وسعها الجهد مهلكة بذلك نفسها وباذرة بذور موتها طال الزمن أو قصر ، ولقد كتبنا من قبل «انظر كتابنا : دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى» ، أن كل جماعة انسانية تنغلق على ذاتها وتستغشى ثيابها وتصم آذانها عن نداء ربها وتستوقد نارها وتزعم أن هذه النار هى هداها هى جماعة هالكة لا محالة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ

اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [**البقرة** ١٧ ، ١٨] .

وفى أمتنا الإسلامية نزعم أننا نملك الروح ونملك المادة ولكننا ممن ينطبق عليهم تشخيص ذى القرنين ﴿ **لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** ﴾ [**الكهف** ٩٣] .

إذن فغياب الفقه الحضارى هو مصيبتنا الأساسية ، ولابد من سد الفجوة بين الصدفين : جبل المادة وجبل الروح .

فهذه الفجوة بين عالم الروح وما يمثله من قيم وبين عالم المادة هى التى تدخل إلينا منها موجات فى إثر موجات من الخراب التنموى والخراب البيئى والخراب السياسى والخراب الاجتماعى . . كتلك الموجات اليأجوجية والمأجوجية التى واجهها ذو القرنين فى الزمن القديم . . أولئك بشر مغيرون وتلك ظواهر اجتماعية وسياسية وبيئية . . النتيجة واحدة وإن تعددت الأسباب التاريخية . . وفى الساحة الإسلامية ألوان وأشكال من الحركات والجماعات التى تبغى الإصلاح بشروطها . . ولكن هذه الشروط فى كثير من الأحيان مدمرة للعقل أومدمرة للروح أو مدمرة للعمران . . صحيح أن العودة إلى التدين حالت بيننا وبين كوارث الفساد الشخصى من إدمان للمخدرات أو انحرافات جنسية ، وذلك بدون شك أمر عظيم ، ولكن النهضة تحتاج إلى شروط لابد أن يتوافر على فهمها وضبطها والتبشير بها نفر من الأمة ممن أسميتهم فى بعض كتاباتى من قبل «نفر الفقه الحضارى» وهم

ثلة قليلة ممن ثقلت خبراتهم وتعمقت رؤاهم ، ترجع إليهم الأمة مسترشدة بفهمهم العميق لمقاصد الدين واحتياجات الحياة ، فيردوا شارد الفكر وتائه الرؤى إلى جادة الصواب .

هم الذين ورد فيهم قول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [**التوبة** ١٢٢] .

وفى الغرب يسمون هؤلاء «المجمع الفكرى» Think Tank وبعض هذه المجامع الفكرية يضع الخطوط الرئيسية لسيادات العالم ، بالطبع من غير التزام بأى مرجعية أخلاقية : أما نفر الفقه الحضارى المسلم فينطلقون من كتاب ربهم وسنة نبيهم ومن الأمثال العظيمة التى ضربها الرجال الصالحون فى تاريخهم .

وبالطبع سيكون هناك طيف تخصصى لنفر الفقه الحضارى . . فمنهم ذو الاجتهاد الاجتماعى ومنهم ذو الاجتهاد التنموى . . طيف بعضه من بعض .

وكما أنشأنا فى مصر مجمع الخالدين للغة العربية فإنه ينبغى أن نبدأ فى تشكيل مجمع الخالدين فى الفقه الحضارى .

أما نتاج هذا الفقه فيتجه إلى طريقين:

الطريق الأول أن تقوم حول هذا الفقه جماعات تربوية جماهيرية تربى الناس عليه بوضع المناهج وإعداد الكوادر القادرة على نشره فى المدارس والمعاهد والمنتديات ، وحتى نضع حداً لهذه الفوضى الدعوية المنتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى .

الطريق الثانى هو طرق المثقفين المتمكنين فى أجهزة الدولة حيث يحاول هؤلاء ترجمة هذا الفكر إلى نظم يستبدلون بها ما ورثناه من نظم قديمة ذهب زمانها أو نظم مستعارة من حضارات أخرى لاتتفق مع أحوالنا ولا تتسق مع قيمنا .

وبعد فأظن أن ما اقترحناه فى هذه الورقة كفيل بإذن الله أن يضع الأمة على طريق الخير «إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين» .

* * *

الإرادة الإنسانية وهم أم حقيقة؟ كل إرادة تملكها وتشعر بها فى كيانك هى موضع حساب ، هل تستطيع أن تسرق أو لا تسرق؟ أن تطيع أو تعصى؟ هذا الشعور بالإرادة ليس وهما ولكنه حقيقة ومن ثم فهو محل حساب . أما ما يتعلق بعلم الله بالأمر وفهمك هذا العلم والقبلية والبعدية فهذا كله من محاولة الإنسان أن يرى الله جهرة كما أحب أن يفعل موسى عليه السلام فكان ما كان ، فالله جلّ وعلا لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، ومحاولة إدراك طبيعة العلم الإلهى هى محاولة لإدراك الذات الإلهية ، من هذا المحدود المخلوق الذى لايفقه عن نفسه إلا القليل الذى زوده به ربه من أجل الطريق .

فالقبلية والبعدية أمور تتعلق بالمخلوق ولا تتعلق بالخالق ، فالزمن مفهوم إنسانى يعرفه الإنسان وينضبط به لكنه مفهوم لا علاقة له بالمشيئة الخالقة لهذا الزمن من أجل الإنسان .

فالله هو الذى خلق الأجسام الدائرة فى مداراتها الثابتة فى الفضاء المحيط بالإنسان حتى يتخذها هذا الإنسان مقياساً للزمن ، فاكتمال دورانها فى مداراتها يمثل فترة زمنية ثابتة يجعلها الإنسان مقياسا لنفسه ، وفى السماء ملايين من الأجرام تدور فى أفلاكها ولكل دورته الزمنية ، وما دورة القمر حول الأرض أو دورة الأرض حول الشمس إلا واحدة من ملايين الدورات التى تحيط بالإنسان .

والنظرية النسبية الخاصة أذهلتنا بما اكتشفت من حقائق جديدة أهمها أن الزمن ليس بمستقل عن المسافة وأن الأمر كله يعتمد على سرعة الراكب فى الفضاء ، ومن نتائج هذه النظرية معضلة التوأمين ، أما أحدهما فبقى على سطح الأرض وأما الآخر فركب مركبة بسرعة تقارب سرعة الضوء ، وبعد ثمانين عاماً مثلا بحساب زمن الأخ القابع فى الأرض عاد الطائر فى السماء وإذا به مايزال صبياً لا يتجاوز ما أنفقه فى الفضاء من زمنه هو بضع سنين ، أى أن لكل منا زمنه الخاص .

فأى زمن هذا الذى تريد أن تخضع فيه إلهك أيها القزم المغرور ، وماذا تعرف أنت عن الزمن حتى تتحدث عن القبلية والبعدية ، وأنت تجهل زمن اخيك من حولك .

هكذا أفهم القضاء والقدر وعلاقة ذلك بالإرادة الإنسانية ، أصف ما أعرف وما أعرف يعرفه كل إنسان عن نفسه ، كل منا يملك إرادة ، وهذه الإرادة لها مساحة تختلف من إنسان لإنسان وكل إنسان مطالب بالإحسان فى هذه المساحة ، سعة المساحة قدر من الله تبارك وتعالى ، والحساب عليها فى حدود سعتها ومن ثم لن نحاسب يوم القيامة حساباً جماعياً ، ولكن حساباً فردياً ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم ٩٥] ، وكذلك كل الأسئلة التى أثارها القدماء حول معرفة الله بفعل الإنسان وقدم الشىء وحدوثه هى أسئلة مقتحمة جاهلة .

مقتحمة غيباً لاتعرف عنه شيئاً وجاهلة بإمكانياتها الواهنة التى

لاتستطيع بها أن تسير طبيعتها هى ولا طبيعة ما حولها إلا بقدر الله وما شاء ، وكما قلنا من قبل إننا لانفهم كيف يحدث هذا للأخوين : القاعد على الأرض والطائر فى السماء وإنما هى نتيجة رياضية من نتائج النظرية النسبية ، والله تعالى قد حدد لنا طريقاً واحداً نتعرف به عليه . . طريقاً حدده فى أربع كلمات ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور ٣٥] . أى أن الله يتجلى بقدرته على السموات والأرض ؛ فينعكس هذا التجلى نوراً معرفياً على الإنسان ، يتعرف به الإنسان على نفسه وعلى ما حوله من كائنات ، والنور لغة هو ما يأتينا منعكساً على الأجسام ، والله يقول ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا** ﴾ [يونس ٥] ، أى أن ضوء القمر هو فى الأصل ضوء الشمس المنعكس على سطح القمر .

فرؤية الله فى الدنيا هو تعرف العالم على كائناته ومنها الإنسان نفسه ، وكل محاولة خارج هذا الإطار سوف ينقلب فيها البصر خاسئاً وهو حسير .

وأنا هنا أتحدث عن محاولة الإنسان اختراق الغيب ولا أتحدث عما يفيض به المولى على بعض عباده الصالحين ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [**النجم** ١٣] ، ذلك عطاء الله للمصطفى ﷺ والله يرزق من يشاء ويختار ، ويتفق ما نقول مع مذهب السلف فى تفسير الصفات مثل

يد الله ـ عين الله ـ وجه الله ـ يمين الله وعرشه ؛ فالله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى ١١] ، ونقول ما قالت أم سلمة - رضى الله عنها - فى تفسير العرش «الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به من الإيمان والجحود به كفر» ، وما قاله مالك «الكيف غير معقول والأستواء غير مجهول والإقرار به من الإيمان والجحود به كفر والسؤال عنه بدعة» ، وهذا ما نلقى به الله عقيدة ، فإن قال الله تعالى إن له يدًا أو عينًا أو وجهًا أو عرشا فله كل ما شاء وأراد من غير محاولة منا أن نخوض فى هذا الأمر أو نحاول فهم كنهه .

ولكن هذا شىء وفهم الآيات التى وردت فيها هذه الصفات شىء آخر ، فإن كنت لا أفهم ولا أحاول أن أفهم «يد الله» ولكن عندما يأتى ذلك فى آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ﴾ [الفتح ١٠] ، فأتفق مع الذين يذهبون فى تأويل الآية «وليس تشبيه اليد» ، بمعنى أن قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرهم ، أو يد الله بالوفاء بما وعدهم من الخير فوق أيديهم «حسنين مخلوف ، فى صفوة البيان لمعانى القرآن» .

والقرآن كتاب عربى مبين ، وهو يخاطب العرب بلغتهم وما استحدثوه فى حياتهم من أساليب فعندما يقول العربى للعربى «أنت فى عينى» أى أنه حريص عليه شديد العطف عليه ، وعندما يقول رجل لرجل «يدى فوق يدك» يعنى نصرته والوقوف معه .

وبالطبع فإن للإنسان عينًا ويد . . وكذلك عندما يقول الله تعالى

لأهل العقبة ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ﴾ [الفتح ١٠] ، فالمعنى الذى يدخل عقل المؤمن العربى هو النصرة الربانية لأصحاب بيعة العقبة ، مع الإيمان والتسليم بأن لله يداً كما جاءت الآية : يداً لا ندرك ما هيتها ولا نسأل عنها ، فالله جل وعلا ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام ١٠٣] .

إننا نقرأ كتاب ربنا ، وترد فيه مثل هذه الصفات ، فإما أن نعبر الآية من غير فهم وهذا تعطيل لجزء من كتاب الله وإما أن نؤول الآية من غير تشبيه للصفات مع الإيمان بها ، وهذا ما أعتقدناه ، والله أعلم .

ولقد مضيت منذ الصبا وأنا أحمل هذه العقيدة ، وأعطانى هذا «بحمد الله» قدرة على التفرغ لما هو أهم فى مجال العمل الفكرى الإسلامى .

لقد ركزت على محاولة قراءة واستخراج الدرر الحضارية من القرآن الكريم فيما أسميته التفسير الحضارى للقرآن ، أبحث فى ثنايا مثل قرآنى أو قصة قرآنية عن القيم الحضارية المكنونة فى باطن المثل أو فى قلب القصة : هذه القيم التى ينبغى أن نبنى عليها حياتنا ، وأحاول جاهداً أن أصوغ من هذه القيم بناءاً هيكلياً يصلح أن ننسج حوله ثوبنا الحضارى .

على كل حال ما كنت أستطيع أن أنجز ذلك من غير طمأنينة نفسية وعقلية للبناء العقيدى الذى استكن فى أعماقى منذ كنت صبياً ، وهيأ لى بفضل الله ورحمته صفاءاً عقلياً وقلبياً أعاننى بفضل

الله ورحمته على التركيز على أولويات العمل الفكرى ، وأظن أن دور العاملين فى حقل الفكر الإسلامى ينبغى أن يركزوا على حسم هذه الخلافات التاريخية ، حتى تفرغ الأجيال القادمة لمهمة البناء الفلسفى الحياتى ، ومن هنا كان لمؤتمركم فضل مشكور بإذن الله .

الصفات الفاعلة والصفات غير الفاعلة:

لقد أحسن السلف والخلف بعدم الخوض فى ماهية ما اسماه البعض بالصفات ، السلف باعتقادهم بها وعدم الخوض فى ماهيتها والخلف بتأويلهم لها مع اختلافنا معهم بعدم إيمانهم بها .

ولكن الأمر المهم أن هذا الموقف يتعلق من الاثنين بأمور غير فاعلة فى الحياة ، فسواء آمنت أن لله عين مع تسليمك بعدم الخوض فى ماهيتها أو أولت آية وردت فيها فإن ذلك لا يؤدى إلى موقف حياتى إزاء الآخرين أو ازاء نفسك أو ازاء الكون المحيط بك .

ولكن عقيدة كعقيدة أن الله جل وعلا ليس له ولد وليس له ابنة أو شريك فى الملك عقيدة فاعلة فى الحياة لأنك لو سلمت أن لله ولد فستفتح الطريق لكل المجانين أن يدعوا أنهم هذا الولد ولو قلت أن لله شريك فى الملك فسوف تفتح الطريق لمن يدعى الملك مع الله ، وهذه العقائد تفتح باباً واسعاً للدجل والنصب والطغيان والتشريع الظالم : أى أنها عقائد فاعلة فى الحياة ، فإذا آمنت مثلا أن رزقك يملكه أحد غير الله فربما سعيت إلى هذا الشريك تذللا وعبادة تطلب منهم رزقك ، أى أن هذه العقيدة الفاسدة أدت بك أن تعبد غير الله وتذل نفسك له ، ولو رأيت مثلا أن العزة ليست

جميعها لله وإنما هناك أجزاء موزعة هنا وهناك فربما سعيت تبتغيها من مظانها الكاذبة فأوقعت نفسك فى الذل المبين .

وانظر إلى عقيدة فاسدة مثل عدم الإيمان بالبعث وكيف أدت بأصحابها إلى الخسران المبين فى الدنيا قبل الآخرة ﴿ **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [**الرعد ٥**] ، فالأغلال فى أعناقهم فى الدنيا والنار مآلهم فى الآخرة .

ورغم ما قدمت من تصور عقيدى يتوسط السلف والخلف فى قضية الصفات فإنى أرى أن ما اختلفوا فيه ليس من القضايا الفاعلة فى الحياة ، وغريب أنك تجد الشخص غارقاً فى الشرك بإشراك المال والجاه والملوك والرؤساء مع الله ولكنه يجادلك فى الصفات فإن وجدك مع الخلف أسرع فى تكفيرك وتكفير كل الأشاعرة فى القديم والحديث .

أعتقد أننى قد أوضحت أننى لست أشعرياً ولكننى أرى أن ما اختلف فيه الأشاعرة وغيرهم أمر غير فاعل فى الحياة ، ولعل محاولتى التوفيقية تنهى هذا الفصل الحزين فى تاريخ المسلمين ليبدأوا بتنقية عقائدهم من الشرك الذى يتسلل إليهم عن طريق العقائد الفاسدة والماكرة والفاعلة فى الحياة .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

الفهـــرس

الصفحة


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨